دراسةٌ أسلوبيَّةٌ في أحاديث الصلاة في صحيح البخاري

A stylistic study in the hadiths of prayer in Sahih Al-Bukhari

أ. د عقيد خالد العزاوي(*)

Prof .Dr .Aqeed Khaled Al-Azzawi

aqeedazawi@yahoo.com

الملخص

تقفُ الدراساتُ الأسلوبية اليومَ عند الخطابِ باعتباره رسالة لها تأثيرها في التلقي، ولاشك أنَّ لكلِّ إبداع مبدع سمات أسلوبية يكشف عنها ابداعُه؛ لذلك ترتكز الدراسات الأسلوبية على قاعدة أساس في بيان وجوه الإبداع، إضافة اذلك توضحُ أسباب ذلك الإبداع.

Abstract

A stylistic studies stand today at the speech , as a message that has an impact on the recipient, undoubtedly ,every creativity has creative and stylistic features revealed by his creativity , therefore ,stylistic studies are based foundation base in clearing up the faces of creativity , in addition ,it explains the reasons for that creativity . Hence our choice in this research was for the hadiths of the Prophet that were mentioned in Sahih al-Bukhari within the chapter on prayer , and we decided to choose a number of hadiths to show the levels of stylistic analysis in it.

Key words -: The stylistic , prayer , Sahih Al-Bukhari

(*) الجامعة المستنصرية – مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية

المقدمة

تقفُ الدراساتُ الأسلوبيَّةُ اليومَ عند الخطابِ باعتباره رسالةً لها تأثيرُها في التلقي، ولا شكَّ أنَّ لكلِّ إبداع مبدعٍ سماتٍ أسلوبيةً يكشف عنها إبداعُه؛ لذلك ترتكز الدراسات الأسلوبية على قاعدة أساس في بيان وجوه الإبداع، إضافة لذلك توضحُ أسباب ذلك الإبداع.

من هنا كان اختيارُنا في هذا المبحث لأحاديث نبويةٍ وردت في صحيح البخاري ضمن باب الصلاة، وارتأينا اختيار عدد من الأحاديثِ ونبيّنَ مستويات التحليل الأسلوبي فيها؛ ذلك لأنها صدرتْ عن أعظم قوة بيانية ناطقة، هي قوة بيان النبي – صلى الله عليه وسلم-، ولعلَّ المتطلعَ لذلك يجدُ أنَّ مناحي دراسة أسلوب الخطاب النبوي متعددة المفاتن، متشعبةٌ في مداركها، كيف لا؟ وهو الذي نزل عليه القرآن الكريم.

وارتأينا أن تكون هذه الدراسة ذات مبحثين أساسيين، هما:

المبحث الأول: حياة الإمام البخاري.

المبحث الثاني: دراسة أسلوبية لعدد من أحاديث الصلاة في صحيح البخاري.

وتكمن أهمية هذا البحث في النقاط الآتية:

أولًا: الوقوف عند وجوه الإعجاز النبوي في أحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، ومعرفة أوجه البيان فيها.

ثانيًا: بيان أنَّ القدرة البيانية الصادرة منه – صلى الله عليه وسلم- قدرةٌ عالية لا تضاهيها قدرة بشر.

ثالثًا: الكشف عن مستويات التحليل الأسلوبي؛ صوتًا، صرفًا، وتركيبًا، ودلالةً، في أحاديث الصلاة في صحيح البخاري.

والمنهج الذي ارتأيناه لهذه الدراسة هو المنهج التحليليُّ الذي يدرس الظاهرة ويفسرها، ويدرس أبعادها، وجوانبها.

المبحث الأول

اسمه ومولده ونشأته ووفاته:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبرا بن المغيرة بن بردزبه و (بردزبه) مجوسي مات عليها- أي مات وهو على دين المجوس- والمغيرة بن بردزبة أسلم على يد اليمان الجعفي البخاري، والي بخاري فانتمي إليه بولاء إسلام، وسرى منه إلى ذريته جيلا بعد جيل ومنهم إمامنا البخاري (الإمام البخاري محدثا وفقيها، ٣٢)، « إذن ابنه المغيرة أسلم على يد اليمان (تاريخ بغداد، ٢/٣٢٢) البخاري الجعفي والبخاري، وإنما قيل للإمام البخاري جعفي ، لأن أبا جده أسلم على يدي جد عبد الله المسندي.

مولده:

أراد الله لمدينة بخاري – وهي من أعظم المدن ما وراء النهر «نهر جيحون» على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد « فارس « - أن يرفع ذكرها ويخلد اسمها فولد بها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل يوم الجمعة في بيت مبارك عطره والده إسماعيل بالعلم والتقوى، فقد كان من العلماء العاملين، والنبلاء الورعين (الإمام البخاري محدثا وفقيها، ٢٤-٢٣).

ولد الإمام البخاري صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر شوال سنة أربع وتسعين ومائة (تهذيب الأسماء واللغات، ٤٥)، وعن محمد بن أحمد بن الفضل البلخي يقول:

« ذهبت عينا محمد بن إسماعيل صغره، فرأت والدتــه في المنــام إبراهيم الخليل عليه الســلام فقــال لها: (يــا هذه قد رد الله علــى ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك ..).

حفظه وصفاته:

اهتم بحفــظ الحديث النبوي الشــريف وهو صبــيٌ وكان يحفظ القليل مــن الأحاديث، وفي ذلــك يقول: (كنت اختلــف _ إلى الفقهاء بمرو _ أي أجلس إليهم. وأنا صبي فإذا جئت أستحي أن أســلم عليهم، فقال لي مــؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين فضحــك من حضــر المجلس فقال شــيخ منهم: لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوماً...) (ســير أعلام النبلاء، ١٢/١-٤) .

وفي ســن العاشــرة حفظ الحديث حتى أنه يقــول: (ألهمت حفظ الحديث وأنــا الكتاب بعد العشــر فجعلت أختلــف إلى الداخلــي وغيره) – أي أجلــس إليــه-، ولما في كان عمره ســت عشرة سنة حفظ كتب ابن المبارك (بن المبارك هــو عبد الله بــن المبارك بن واضــح الحنظلي التميمــي، ولد ســنة ١١٨ هـ وتوفــي ١٨١ هـ، انظــر تهذيب الكمال في أســماء الرجال، ١٠ / ٤٦٦.).

لقد كان البخاري في حفظه وذكائه وعلمه بالرجــال، وعلــل الحديث آية مــن آيات الله في الأرض، وقــد أنعم الله عليــه بهذه النعمة ليحفظ على الأمة سنة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم بتأليفه الجامع الصحيح الذي يعد أول كتاب ألف فــي الصحيح وقــد روى عنه أنه قــال: (أحفظ مائــة ألف حديــث صحيح ومائتــي ألف حديث غير صحيح) وروى عنه أنه ترك عشرة آلاف حديــث لرجل فيه نظر، وترك مثله أو أكثر منه لغيره له فيه نظر (تاريخ بغداد، ٣٢٢/٢).

وروى عــن محمــد بــن حاتم الــوراق قال ســمعت حاشد بن إســماعيل يقول: كان أبو عبد الله يختلف معنا إلى مشــايخ البصرة وهو غلام فــلا يكتب حتى أتــى على ذلك أيــام وكنا نقول لــه: إنك تختلف معنــا ولا تكتب فما معناك، فيمَ تصنع؟ فقال لنا بعد ســتة عشــر يوماً: (أنكما قد أكثرتم عليّ وألححتما، فأعرضا علي ما كتبتما. فأخرجنا ما كان عندنا فزاد على خمســة عشرة ألــف حديث، فقرأها كلهــا على ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا على حفظه) (تاريخ بغداد، ٥)

إمامة محمد بن إسماعيل البخاري ومعرفته بالحديث وعلله:

أوردت كتــب التراجم ما يدلــل على إمامة البخــاري في الحديث الشــريف كيــف لا وهو صاحب أصح كتاب بعد القرآن الكريم.

فقــد أورد ابن خلفون فــي تراجمه « محمد بــن إســماعيل البخــاري ثقة مأمــون صاحب التصانيف الكثيرة. وقال أبو داود ســمعت علي بــن حجر قال: مــا أخرجت خراســان مثل أبي زرعــة الرازي بالــري، ومحمد بن إســماعيل البخــاري ببخارى، وعبد الله بــن عبد الرحمن الســمرقندي بســمرقند، ومحمــد بن إســماعيل عندي أبصرهم، وأعلمهم وأفقههم.

وروى عبــد الله بــن أحمــد بــن حنبــل عن أبيــه قــال: انتهــى الحديث إلى أربعــة من أهل خراســان، أبــو زرعــة الــرازي، ومحمــد بن إســماعيل البخاري، وعبــد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، والحسن بن شجاع البخلي.

وروي عــن بندار محمد بن بشــار أنه قال: حفــاظ الدنيا أربعة: الرازي بالري، ومســلم بن

الحجاج بنيسابور، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل البخاري ببخاري.

وروي عن نعيم بن حماد المروزي، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي أنهما قالا: محمد بن إسماعيل فقيه.

وروي عن عبدان بن عثمان قال: ما رأيت بعيني شابا أبصر من هذا وأشار إلى محمد بن إسماعيل.

وقال محمد بن أبي خزيم: سمعت يحيى بن جعفر يقول: لو قدر لي أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموت محمد بن إسماعيل ذهاب العلم.

وقال أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي في سنة سبع وأربعين ومائتين: يقدم عليكم رجل من أهل خراسان لم يخرج منها أحفظ منه، ولا قدم العراق أعلم منه، فقدم بعد ذلك محمد بن إسماعيل بأشهر « (المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، ١٥ .)

وعند ابن خلفون أيضاً روايات أخر تشير بجلاء إلى إمامة البخاري في علم الحديث ذلك الشريف ومن ذلك «وروى عن سليم بن مجاهد قال: كنت عند محمد بن سلام فقال لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث، قال: فخرجت لأطلبه حتى لقيته فقلت: أنت الذي تقول: أنا أحفظ سبعين ألف حديث. قال: نعم وأكثر منه، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروي حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا لي في أصل أحفظه عن كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ. وروي عن أبي حامد بن حمدون القطان أنه قال: سمعت مسلم بن الحجاج، وجاء إلى محمد بن إسماعيل البخاري فقبل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث وعلله حدثك محمد بن سلام قال: حدثنا مخلد بن يزيد الحراني قال: حدثنا ابن جريج، عن موسى ابن عقبة، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، في كفارة المجلس فما علته، قال محمد بن إسماعيل: هذا حديث مليح ولا أعلم في الدنيا غير هذا الحديث الواحد في هذا الباب إلا أنه معلول ثنا به موسى بن إسماعيل قال: ثنا وهيب قال: ثنا سهيل عن عوف بن عبد الله قوله، قال محمد ابن إسماعيل: وهذا أولى فإنه لا يذكر لموسى بن عقبة سماع من سهيل، فقال له مسلم، لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك. وروي عن محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل. يعني البخاري: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف، قال: لا يخفى على جميع ما فيه. وروي عن البخاري أنه قال: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح. وروى جميع عنه أنه قال: أخرجت هذا الكتاب. يعني الجامع الصحيح. من زهاء ستمائة ألف حديث (المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، ١٦ .)

ووردت أقاويل أخرى تصب في ذات السياق في كتاب التاج المكلل تؤكد هذا الأمر " وكان ابن صاعد إذا ذكره، يقول: الكبش

النطـاح. ونقل عنه محمد بن يوسـف الفريري أنــه قال: مــا وضعت في كتابــي " الصحيح " حديثا إلا اغتسـلت قبل ذلك، وصليت ركعتين. وعنه أنه قال: صنفت كتابي " الصحيح " لست عشرة سـنة، خرجته من ست مئة ألف حديث، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله.

كتبه ومؤلفاته:

أخرج لنا هذا الجبل الهمام تراثاً إسـلامياً ما زلنا ننتفع به حتى يومنا هذا ولو لم يخرج لنا إلا صحيحــه لكفاه ذلك ومن الكتب والمؤلفات التي كتبهــا إمامنا البخاري: التاريـخ الكبير، وكتاب التاريخ الصغير وكتاب الأسماء والكني، وكتاب الضعفاء، وكتاب الصحيح، وكتاب السـنن في الفقه، وكتاب الأدب وكتاب رفع اليدين، وكتاب القـراءة خلف الإمـام، (الدر الثمين في أسـماء المصنفين، ١٧٣)

شيوخه:

سـمع الإمام البخاري عن كثب من شيوخه في علوم شـتى سيما علم الحديث الشريف ومن هؤلاء الشـيوخ والأسـاتذة: « مكي بن إبراهيم البلخـي، وعبدان بن عثمـان المروزي، وعبيد الله بن موسـى العبسـي، وأبو عاصم الشيباني، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، ومحمد بن يوسف الفريابـي، وأبـو نعيـم الفضل بن دكيـن، وأبو غسـان النهدي، وسـليمان بن حرب الواشحي، وأبو سـلمة التبوذكي، وعفان بن مسلم، وعارم بن الفضل، وأبو الوليد الطيالسـي، وأبو معمر المنقـري، وعبـد الله بن مسـلمة القعنبي، وأبو بكر الحميدي، وسـعيد بن أبي مريم المصري، ويحيـى بـن بكيـر المخزومـي، وعبـد الله بن يوسـف التنيسـي، وعبـد العزيـز بـن عبد الله الأويسي، وأبو اليمان الحمصي، وإسماعيل بن أبـي أويس المديني، وعبد القدوس بن الحجاج، وحجـاج بن المنهال، ومحمـد بن كثير العبدي، وخالـد بن مخلد القطوانـي، وعلي بن المديني، وأحمد بـن حنبل ويحيـى بن معيـن « (تاريخ بغداد، ٢/٣٢٢)

كما سـمع البخـاري وتتلمذ بنيسـابور من يحيى بن يحيى وجماعـة. وبالري: إبراهيم بن موسـى. وببغداد إذ قـدم العراق في آخر سـنة عشـر ومائتين من محمد بن عيسى بن الطباع، وشـريج بن النعمان ومحمد بن سـابق وعفان. وبالبصرة من أبي عاصـم النبيل، والأنصاري وعبـد الرحمن بن حماد الشـعيبي صاحب ابن عون، ومن محمد بن عزعزة وحجاج بن منهال وبدل بن المحبر، وعبد الله بن رجاء وعدة (سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٨١.)

وبالكوفـة مـن عبيد الله بن موسـى، وأبي نعيـم وخالد بن مخلـد وطلق بن غنـام، وخالد بن يزيـد المقرئ ممن قرأ علـى حمزة. وبمكة مـن أبي عبد الرحمن المقري، وخلاد بن يحيى وحشان بن حسـان البصري، وأبي الوليد أحمد بن محمد الأزرقـي والحميـدي، وبالمدينة من عبـد العزيز الأويسـي، وأيوب بن سـليمان بن بلال وإسـماعيل بن أبي أويس. وبمصر: سعيد بن أبـي مزيم وأحمد بن إشـكاب، وعبد الله بن يوسـف. وبالشام: أبي اليمان وآدم بن أبي إياس وعلي بن عياش وبشـر بن شـعيب، وقد سـمع مـن أبي المغيرة عبد القـدوس، وأحمد بن خالد

الوهبي ومحمد بن يوسف الفريابي وأبي مسهر وأمم سواهم (سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٨١.)

ومن شيوخه أيضاً: أصحاب ابن المبارك، وابن عيينة وابن وهب، والوليد بن مسلم. ومحمد بن يحيى الذهلي الذي روى عنه الكثير، ومحمد بن عبد الله المخرمي ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة، وهؤلاء هم من أقرانه وقد سمع من أبي مسهر، وشك في سماعه فقال في غير الصحيح: حدثنا أبو أو حدثنا رجل عنه، وروى عن أحمد بن عبد الملك بن، واقد الحراني لقية بالعراق ولم يدخل الجزيرة وقال: دخلت على معلى بن منصور الرازي ببغداد سنة عشر، (سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٨١.)

تلامذته:

أما تلاميذ البخاري فتوزعوا أيضاً في الأمصار؛ ففي بغداد: إبراهيم بن إسحاق الحربي، وعبد الله بن محمد بن ناجية، وقاسم بن زكريا المطرز، ومحمد بن محمد الباغندي، ويحيى بن محمد بن صاعد، ومحمد بن هارون الحضرمي، وآخر من حدث عنه بها الحسين بن إسماعيل المحاملي (تاريخ بغداد، ٣٢٢/٢)

كما حدث عنه أبو عيسى الترمذي، وأبو محمد بن محمد بن صاعد، والحسين ابن محمد بن حاتم الحافظ المعروف بعبيد العجل، وأبو حامد أحمد بن محمد بن الشرقي وأخوه عبد الله، وأبو بكر بن صدقة، وأحمد بن عبدان الأهوازي، وغيرهم من الحفاظ (التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، ٣١.)

وقال محمد بن طاهر المقدسي: روى هذا الكتاب يعني الصحيح عن البخاري جماعة غير الفربري منهم حماد بن شاكر وإبراهيم بن معقل النسفي وطاهر بن محمد بن مخلد النسفي وقال الأمير أبو نصر بن ماكولا أحد من حدث عن البخاري بالصحيح أبو طلحة منصور بن محمد بن علي بن قرينة البزدوي من أهل بزدة وكان ثقة توفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. (التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، ٣١.)

وقال محمد بن يوسف الفريري: سمع كتاب الصحيح لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل فما بقي أحد يرويه غيري (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٨١.).

وفاته رحمه الله تعالى:

قال محمد بن حاتم الوراق: سمعت غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه البخاري بخرتنك (وهي قرية من قرى سمرقند، على فرسخين منها) يقول: أنه أقام أياماً فمرض حتى وجه إليه رسول من أهل سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم فأجاب وتهيأ للركوب ولبس خفيه وتعمم، فلما مشى عشرين خطوة أو نحوها وأنا آخذٌ بعضده، ورجل آخر معي يقود الدَّابة ليركبها فقال: - رحمه الله- أرسلوني فقد ضعفت فأرسلناه فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى – رحمه الله – ثم سال منه عرق كثير (ترجمة جامع صحيح البخاري، ٤٧/١.)

وقال أبو حسان الكرماني: كان البخاري في بيت وحده فوجدناه لما أصبحنا وهو ميت والله أعلم. وكان قد قال لنا: كفنوني في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة قال: ففعلنا فلما أدرجناه في أكفانه، وصلينا عليه ووضعناه في حفرته أي في قبره - فاح من تراب قبره

رائحة طيبة كالمسك ودامت أياما وجعل الناس يختلفون إلى قبره - أي يذهبون إليه - أياماً يأخذون من ترابه حتى ظهر القبر ولم نكن نقدر على حفظ القبر بالحراس وغلبنا على أنفسنا فنصبنا على القبر خشباً مسبكاً حتى لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر (ترجمة جامع صحيح البخاري، ٤٧/١.)

وقال وراقه: ولم يعش غالب بن جبريل – وهو الذي نزل عنده البخاري – بعده إلا القليل ودفن إلى جانبه (ترجمة جامع صحيح البخاري، ٤٧/١.)

وكانت وفاة البخاري في ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومئتين فتوفي البخاري بعد أن ملأ الدنيا نورا برواية الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وترك الأثر الخالد الذي ينير الطريق إمام البشرية ويهديها الصراط المستقيم رحمه الله رحمة واسعة. (الإمام البخاري محدثا وفقيها، ٢٤-٢٣)

وأما والد البخاري، إسماعيل بن إبراهيم فقد كان عالماً محدثاً، عرف بين الناس بحسن الخلق، وسعة العلم.

ونقل القسطلاني قول الذهبي عنه في تاريخ الإسلام: (وكان أبو الإمام البخاري من العلماء الورعين وسمع من مالك وحماد بن زيد وروى عنه موته قال: (لا أعلم في جميع مالي من شبهة)، (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٣١/١)، «- أي كان يبتعد عن الشبهات وهذا دليل على صلاحه وتقواه.

وتوفي والد البخاري وهو صغير فنشأ يتيماً في أمه، التي كانت امرأة صالحة لا تقل ورعاً وصلاحاً عن أبيه، والتي تعهدته حجر بالرعاية والتعليم تحثه على العلم وتحببه فيه، وتزين له الطاعات، فشب مستقيم النفس، عف اللسان، كريم الخلق، مقبلاً على الطاعات.

ثانيًا: دراسة أسلوبية في أحاديث الصلاة في صحيح الإمام البخاري.

تمهيد:

تعد الأسلوبية ذات ملمحٍ فكري يرتكز عليه العمل الإبداعي، وقد مثَّل ذلك وجهاً فنياً غنيّاً بالمدلولات التي يحتملها النص، وقد رفدت الأسلوبية الدراسات الحديثة بحضور فكري تتقارب فيه زوايا النظر الدارسة للنص تبعاً لما فيه من معطيات.

ولعلنا أمام وقفةٍ تعالجُ نوعاً من النصوص اتسمتْ بالبناء الفني المحكم؛ لأنها صدرت عن مبدعٍ جاء الوصف القرآني فيه: « وإنك لعلى خلقٍ عظيم»، [سورة القمر:٤].

من هنا اتسمت بلاغة اللسان النبوي بسماتٍ ليست تدانيها سمات البشر، فالفصاحة والبلاغة وفصل الخطاب آيتها ودليلها، وقد سعيتُ في هذا البحث إلى الوقوف على جوانب أسلوبية تتعلقُ بأحاديث الصلاة في صحيح الإمام البخاري؛ أملاً في الكشف عن ما فيها من لفتاتٍ بلاغية وفنية أسلوبية.

وقد جاء في معاجم اللغة، ضمن مادة (سَلَبَ)، أنه يقال للسطر من النخيل أسلوب، وأنَّ كل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب ... وقد تدل هذه الكلمة على الفن، فيقال: أخذ فلان في أساليب

من القـول؛ أي أفانيـن (انظر: لسـان العرب، ٤٧٣/١، والمحيـط، الفيـروز آبـادي، ٩٨/١، والوسيط، ٤٤١/١.) .

أمـا فـي اصطـلاح العلمـاء فقـد تعـددت التعريفـات وفقـاً لمجـالات فهـم الأسـلوب واختلافهـا، ووفقـاً لاعتبـارات عناصر العمل الأدبـي، ومـن ضمـن الاصطلاحـات لفهـم الأسـلوب أنه عبارة عن « قوة ضاغطة تتسلط على حساسـية القارئ بواسـطة إبراز عناصر سلسلة الكلام، وحمل القارئ على الانتباه إليها، بحيث إن غفل عنها تشـوَّه النص» (الأسـلوبية الرؤية والتطبيق، ٣٧) .

من ذلك يتبيَّن أنَّ الأسـلوب طريق يكشـف عن الأنظمـة الداخلية للنص، بحيث تتمكن تلك الأنظمة من التأثير في المتلقي واستمالة ذائقته.

ونقـف بناءً علـى ذلك عند بعـض أحاديث الصـلاة الـواردة في صحيح الإمـام البخاري، مسـتفيدين مما في تلـك الأحاديـث من ملامح أسلوبية تخضع للمستوى الصوتي، والصرفي، والتركيبي، والدلاليّ.

الحديث الأول:

حدثنـا أبو عاصم عن مالـك عن أبي الزناد عن عبدالرحمن الأعرج عـن أبي هريرة قال: قال النبي – صلى الله عليه وسـلم- :» لا يصلي أحدكـم فـي الثـوب الواحـد ليس علـى عاتقيه شيءٌ». (صحيح البخاري، ١٠١.)

أولاً: المستوى الصوتي:

تنوعـت فـي الحديـث الأصـوات جهـراً وهمسـاً وشـدةً ورخاوةً، واسـتعلاءً واستفالاً، وإنَّ هذا التنوع ناتـج عن المقام المراعى، فهو ليـس مقامَ تحريم كما قد يبـدو من ظاهره، إنما مقـام إخبـار بدليل قولـه :» لا يصلي» فلا هنا نافية؛ حيـث أثبت ذكر الياء، ولـو كانت ناهية لجـزم الفعل بحذف اليـاء، إذن فالمقام إخباري إرشـادي، وقد جاء في مصنَّفِ إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري :» والنهي المذكور ليس محمولاً على التحريم، فقد ثبت أنه –صلى الله عليه وسـلم- صلى في ثـوبٍ واحدٍ كان أحد طرفيه على بعض نسـائه وهـي نائمة، ومعلوم أن الطرف الذي هو لابسه من الثوب غير متسع لأن يتـزر به ويفضل منه ما كان على عاتقه». (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

إذن كمـا بـدا لنا أنَّ الأصـوات في الحديث جـاءت متنوعة منسـجمة مع غـرض الحديث متماهية معـه دون أن يكون فيها صوتٌ مكرَّر أو متفشٍ ظاهرٍ حتى يقال له دلالته الخاصة.

ثانياً: المستوى النحوي

يتركز إخبار النبي -صلى الله عليه وسـلم- عـن عدم الصلاة في ثوب واحـد في حالة عدم وجـود شـيء علـى عاتقيه، مـا يعنـي أن في الحديـث جملة مركزية تقـوم عليها دلالة النفي وهي «ليس على عاتقيه شيء»، وهذا أدلُّ على بيـان هيئة المصلي التي عليـه أن يجتنبها، وقد جاء لفـظ «عاتقيه» مثنى؛ دلالـة على أفضلية سترهما معاً، وهذا نابعٌ من حرص النبي -صلى الله عليـه وسـلم- على أنْ تكـون للمصلي هيئةٌ صحيحـة تسـتوجب قبول الصـلاة من الله عز وجل.

وفي الحديث مجيءُ كلمة «شيء» نكرة يسترعي الالتفات إلى أفضلية الستر بالشيء المتمكن الموجود دون أن يكون هناك إسراف أو مبالغة في تحصيل الستر.

ثالثاً: المستوى الدلالي

تنبع دلالة الحديث الشريف من محتوى السياق العام الوارد فيه، فالخطابُ هنا محصّل من مقامٍ نبوي موجَّه إلى مقام الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم- ولما كانت طبيعة الخطاب النبوي تحرصُ على الإرشاد ونشر الفضيلة جاء هذا الحديث منسجماً مع حرص النبي –صلى الله عليه وسلم- أن يكون المسلم متهيئاً أمام المقام الإلهي العليّ في صورةٍ تعكس حضوره الإيماني الجليل.

الحديث الثاني:

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم:» من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته». (صحيح البخاري، ١٠٨.)

أولاً: المستوى الصوتي

لعلَّ ما يلفت الانتباه في هذا الحديث على المستوى الصوتي هو تكرار ضمير الجماعة المتمثل في ثلاث كلمات (صلاتنا، قبلتنا، ذبيحتنا) وهذا الضمير (نا) فيه امتداد للنفس وجريان له، وهو يُعبّر عن وحدة الموقف الإسلامي المتمثل في مراعاةِ ما ذكره الحديث؛ إثباتاً للهوية المسلمة وتعريفاً بها.

كذلك نجد في الحديث قوله :»لا تخفروا» وهي عبارة عن مجموعة أصوات يتتالى فيها الهمس في حروف التاء والخاء والفاء ثم جيء بصوت الراء المكرر، وتعني (لا تخونوا)، «ويقال: خفرت الرجل إذا حميته، وأخفرته إذا نقضت عهده، والهمزة فيها للسلب؛ أي أزلت خفارته كأشكيته إذا أزلت شكواه (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

وإن في استحضار صوت الراء المكرر ما يدل على نهي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عن إخفار الله في ذمته، فكيف لو تكرر ذلك.

ثانياً: المستوى الصرفي

تتجلى في الحديث السابق أوامرُ حث عليها الحديث، منها استقبال القبلة فقال:» واستقبل قبلتنا»، و «استقبل» على زنة «استفعل»، والألف والسين والتاء حروف زائدة على الكلمة جاءت لتفيد تهيؤ المسلم لأمر الصلاة، وهذا التهيؤ « لا تصح الصلاة بدونه إجماعاً بخلاف العاجز عنه كمريض لا يجد من يوجهه إلى القبلة ومربوط على خشبة فيصلي على حاله ويعيد، ويعتبر الاستقبال بالصدر لا بالوجه أيضاً؛ لأن الالتفات به لا يبطل». (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

إذن يفهم من صيغة «استفعل» المتمثلة في كلمة «استقبل» أنها تدلُّ على التوجه بالصدر ناحية القبلة واستحضار نية الصلاة وأدائها.

ثالثاً: المستوى النحوي

في الحديث السابق حذف يدل عليه السياق العامُّ للنص، يتمثل في قوله :» من صلى صلاتنا» وتقدير المحذوف من صلَّى صلاةً

كصلاتنا، وهذا الحذف فيه ترك الذكر أفصح من الذكر نفسه؛ لأنه بالذكر قد يوهم صلاةً بعينها، لكن الحذف هنا جاء دالاً على الاستغراق؛ إذ المقصود الصلاة بأنواعها فرضاً وسنةً.

كذلك في الحديث حذف آخر في قوله :» فلا تخفروا الله في ذمته» والمحذوف هو ورسوله، «وحذف لدلالة السياق عليه، أو لاستلزام المذكور المحذوف». (فتح الباري، ٢٨٠)

وفي الحديث أيضاً إطنابٌ بذكر القبلة، فقال :» واستقبل قبلتنا» ومن المعلوم أن استقبال القبلة داخل في عموم الصلاة، وهذا الإطناب «تعظيم لشأن القبلة، وذكر الاستقبال بعد الصلاة للتنويه به». (فتح الباري، ٢٨٠)

كذلك لا يخفى ما في الحديث من تكرار لكلمة «ذمة» حيث أفصح هذا التكرار عن أهمية أن يلتزم المسلم بنص الحديث وما انطوى فيه من إشارات وإرشادات نبوية.

وفيه أيضاً التشويق الحاصل بقوله: « من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا»، فقد ذكر هذه الأمور الثلاثة ثم أفصح عن نتيجة الالتزام بها، فقال: فذلك المسلم، وكأنَّ الحديث بذلك فصَّل ثم أَجْمَلَ، وعَمَّمَ ثم خَصَّص، وحدَّد بعد إسهاب هوية المسلم وعرف به.

كذلك جاء النهي في قوله: « فلا تخفروا الله في ذمته» مفيداً التحريم؛ لأن نقض عهد الله بمخالفة الأمور السابق ذكرها يخرج المسلمَ من دائرة الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه إلى دائرة اتباع الهوى واجتناب الأوامر.

المستوى الدلالي:

يدل الحديث السابق على ماهية الإسلام ويحدد هوية المسلم ويدل على شخصه وملامحه، لأن من شروط المسلم أنْ يكون ملتزماً في صلاته متبعاً لهدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذن فدلالة الحديث تعريفية وتحديدية لبيان هوية الشخص المسلم.

الحديث الثالث:

عن أبي هريرة –رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يقول :» أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يومٍ خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يُبقى من درنه شيئاً، قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا». (صحيح البخاري، ١٣٩.)

المستوى الصوتي

في الحديث السابق ما يلفت الانتباه من توظيف كلمة (يمحو) تعبيراً عن زوال الخطايا، وهي كلمة جاءت منسجمةً صوتياً مع المعنى المعبر عنها، فأصل الكلمة (مَحَوَ) و «الميم والحاء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على الذهاب بالشيء، ومحت الريح السحاب: ذهبت به، ومحوت الكتاب أمحوه محواً، وامَّحى الشيء: ذهب أثره، كذلك امتحى». (مقاييس اللغة، ٨٥٤)

إن صوت الميم والحاء والواو يدل على إعفاء الأثر وإزالته، وفي كلمة (يمحو) ما يدل على يُسر الإزالة والإعفاء، فالمسلم إذا التزم بالصلوات وأداها حق الأداء فإنه تمحى خطاياه بكل سهولة ويسر كما تمحو المياه أدران الجسم.

ثانياً: المستوى النحوي

في الحديث السابق التفاتٌ جميل خرج به الكلام خطاب الجمع إلى خطاب الواحد وذلك لأنه «أقبل على الكل أولاً فخاطبهم جمعاً ثم أفرد إشارةً إلى أن هذا الحكم لا يخاطب به معين لتناهيه في الظهور فلا يختص به مخاطب دون مخاطب». (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

وهذا التنوع في شكل الخطاب أضفى عليه مسح من التشويق للسامع، وجعله أقرب استحضاراً لمضمونه ومواتياً لتعليماته وإرشاداته.

وفي الحديث تركيبٌ موشى بفنية التشبيه، فقد شبه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حال المسلم الذي يغتسل بالماء فلا يبقى من درنه شيء بحال المسلم الذي يصلي فلا تبقي الصلاة من خطاياه شيئاً، « قال الدماميني رحمه الله: شبه على وجه التمثيل حال المسلم المقترف لبعض الذنوب المحافظ على أداء الصلوات الخمس في زوال الأذى عنه وطهارته من أقذار السيئات بحال المغتسل في نهر على باب داره كل يوم خمس مرات في نقاء بدنه من الأوساخ وزوالها عنه، ويجوز أن يكون هذا من تشبيه أشياء بأشياء، فشبهت الصلاة بالنهر لأنها تنقي صاحبها من درن الذنوب كما ينقي النهر البدن من الأوساخ التي تعلق به بالاغتسال فيه، وشبه قرب تعاطي الصلوات وسهولته بكون النهر قريباً من مجاورته على باب داره، وشبه أداءها كل يوم خمس مرات بالاغتسال المتعدد كذلك، وشبهت الذنوب بالأدران لتأذي بملابستها، وشبه محو السيئات عن المكلف بنقاء البدن وصفائه». (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

وفي الحديث أيضاً ما لا يخفى من أسلوب التشويق الذي راعاه النبي –صلى الله عليه وسلم- بقوله: أرأيتم؟ وفيه استمالة المخاطب ودعوته للإصغاء لمضمون الحديث.

المستوى الدلالي

تتبع دلالة الحديث من كونه يحث على أداء الصلواتِ في تطهر النفوس وتزيل عنها الذنوب وتصل المسلم بربه، وهذه الدلالة هي دلالة ظاهرة من معنى الحديث، فلا خفاء فيها، وقد راعى هذه الدلالة قول الرسول مستحضراً أسلوب الاستفهام الذي خرج ليفيد التشويق « أرأيتم» وفيه دلالة إقناعية، تجعل المسلم يقر بأهمية الصلاة؛ لكي يلتزم بها ويحافظ عليها.

الحديث الرابع

عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال :» يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم –وهو أعلم بهم-: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهو يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». (صحيح البخاري، ١٤٣).

المستوى الصوتي

يتضح في الحديث انسجام العنصر الصوتي وتماهيه مع المعنى بشكلٍ لافت، وهذا يتضح من خلال توظيف ما يأتي:

أولاً: كلمة يتعاقبون

وهي فعل مستمرٌ في دلالته وقد أسند إلى الجماعة، جماعةِ الملائكة، وفي استحضار هذا

الفعل بأصواته الدالة علـى التتابع دلالة تتغاير مع دلالة كلمة أخرى، مثل: «يجتمعون» مثلاً، «فالتعاقـب أن تأتـي جماعة عقـب الأخرى ثم تعود الأولى عقب الثانية». (إرشـاد السـاري، ٢/ ٢٠٦)

وعلـى ذلك يفهـم أنَّ التعاقـب يحمل دلالة الاجتمـاع، وليس العكس، فنقول: إن كل تعاقب اجتماعـاً وليـس كل اجتمـاع تعاقبـاً، ويزيـد القسـطلاني الأمر وضوحاً بقولـه:» إن تعاقب الصنفين لا يمنـع اجتماعهما؛ لأن التعاقب أعم مـن أن يكون معه اجتماع كهذا أو لا يكون معه اجتماع». (إرشاد الساري، ٢/ ٢٠٦)

ثانياً: قوله: تركناهـم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون.

ففي العبارة السـابقة انسـجام إيقاعي عذب فـكلا الجملتين وردتا على نغم موسـيقي واحد، وهذا بدوره جعل نص الحديث متسقاً، ولا يخفى أن مـا بين الكلمتين (تركناهـم) و (أتيناهم) من تضادٍ جعلَ دلالة المعنى ماثلة من حيث عنصر الحركـة، وهـذا مـا يدل علـى إتيـان الملائكة ورجوعهـم والمصلـون على حالـةٍ واحدة من حيث الصلاة.

المستوى النحوي

تتجلى في الحديث عناصر تركيبية ساهمت في إغناء النص بشـحنات دلالية متعددة، ونبين ذلك في الآتي.

أولاً: تقديـم الجار والمجـرور في قوله: « يتعاقبون فيكم ملائكة» وتقديم الجار والمجرور هنا أفاد التخصيص.

ثانياً: تنكير كلمة ملائكـة وتكرارها يوحي بـأن ملائكـة النهار غيـر ملائكة الليـل، يقول العسـقلاني: « قوله « ملائكة» قيل: هم الحفظة ... وقـال القرطبي: الأظهر عندي أنهم غيرهم، ويقويـه أنه لم يُنقل أنَّ الحفظـة يفارقون العبد، ولا أنَّ حفظة الليل غير حفظة النهار، وبأنهم لو كانوا هم الحفظة لم يقع الاكتفاء في السؤال منهم عـن حالة الترك دون غيرها فـي قوله:» كيف تركتم عبادي». (فتح الباري، ٢/ ٥٣٢-٥٣١)

وقد مثَّل القسـطلاني تأكيداً على أن ملائكة الليل غيـر ملائكة النهـار، مثَّل بقولـه تعالى: « إن مع العسـر يسـراً» [سـورة الشرح:٦]، يقـول:» تنكير ملائكة فـي الموضعين ليفيد أن الثانية غير الأولى كما قيل في قوله تعالى:» إن مع اليسر يسـراً» إنه استئناف وعده تعالى بأن اليسر مشفوع بيسرٍ آخر، لقوله: لن يغلب عسر يسرين، فإن العسر معرف فلا يتعدد سواء كان للعهد أو للجنس، واليسـر منكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد ما يغاير ما أريد بالأول». (إرشـاد الساري، ٢/ ٢٠٦).

المستوى الدلالي:

ينطوي الحديث عن سلسـلةٍ مـن الدلالات النوعيـة التي تكتنزها مفرداتـه وتراكيبه، ففي قولـه –صلى الله عليـه وسـلم-: يتعاقبون فيكم ملائكـة بالليل وملائكة بالنهـار، دلالة على أن الملائكـة تقوم بمهمة رصد وتسـجيل الأعمال التي كُلّـف بها العباد، وأنها تقـوم بوظيفة رفع الأعمال لله سبحانه وتعالى.

كذلـك فـي قولـه: تركناهـم وهـم يصلون وأتيناهـم وهم يصلون دلالة علـى فعل الطاعة الذي استمر به هؤلاء المصلون، وأنهم بطاعتهم هذه ينالون الفضل من الله تعالى.

الخاتمة

وبعد، فقد تبيَّن في هذه الدراسة الأسلوبية مواطنُ جلَّ فيها النظمُ الأسلوبي في أحاديث النبي – صلى الله عليه وسلم-ويمكن أن نخلص لذلك في نقاط، منها:

أولًا: كان توظيف الصوتِ في أحاديث الصلاة منسجمًا إلى أبعد مدًى معَ المعنى العام الذي يرشد إليه الحديث الشريف.

ثانيًا: إنَّ تركيب الحديث النبوي متناسقٌ تمامًا في جوٍّ نظميٍّ عال، فليس فيه كلمة تنبو عن النسق، أو تشذ عن السياق.

ثالثًا: إنَّ دلالة الحديث النبوي الضمنية تنبعُ من فعل انتظام الجزئيات؛ أي المفردات والجمل، في سياق دال.

رابعًا: كذلك نجد كلمات الأحاديث النبوية ذاتَ بنية صرفية سليمة، لا انحراف فيها نظمًا أو بيانًا.

المصادر والمراجع:

- إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٦م.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري – للقسطلاني – المقدمة – ط دار الفكر بيروت.
الإمام البخاري محدثا وفقيها – تأليف الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم- الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- تاج الدين علي بن أنجب بن عثمان بن عبدالله أبو طالب، ابن الساعي، (١٤٣٠ه – ٢٠٠٩م)، الدر الثمين في أسماء المصنفين، تحقيق: أحمد شوقي بنبين، محمد سعد حنشي، ط١، تونس: دار الغرب الإسلامي.
- تاريخ بغداد- أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي- دار الكتاب العربي- بيروت ط١، ١٤١٧ه – ١٩٩٧م.
- ترجمة جامع صحيح البخاري - إدارة الطباعة المنيرية، لصاحبها ومديرها: محمد منير الدمشقي- عالم الكتب بيروت.
- التقييد لمعرفة سنن رواة السنن والمسانيد، أبو بكر معين الدين محمد بن عبدالغني بن أبي بكر بن شجاع، ابن نقطة الحنبلي البغدادي، (١٤٠٨ه – ١٩٨٨م) ، تحقيق: كمال يوسف الحوت. ط١ (د.م): دار الكتب العلمية.
- تهذيب الأسماء واللغات – لأبي زكريا محي الدين بن شرف النووي- تحقيق عواد.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال – للحافظ جمال الدين بن الحجاج يوسف المزي- تحقيق: بشارة عواد معروف.
- سير أعلام النبلاء – تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي (٧٤٨ه) – تحقيق: شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة.
- صحيح البخاري، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب الصلاة، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١/٢٠٠٢م.
- المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، ابن خلفون، أبو بكر محمد بن إسماعيل، (د.ت)، تحقيق: أبو عبدالرحمن عادل بن سعد، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٨م.